الفصل الثامن عشر

يحيى هويدي

وفلسفته الواقعية الإيمانية

الفصل الثامن عشر

يحيى هويدي
وفلسفته الواقعية الإيمانية

أولاً: مكانته الفكرية

يُعد د. يحيى هويدي (1923 - 2014م) واحدًا من جيل رواد الفكر الفلسفي المصري المعاصر. ولا شك أن الدارسين في مصر والعالم العربي يعرفون جيدًا د. هويدي كأحد هؤلاء الرواد الذين يحرصون في كل ما يكتبون على الإضافة والتجديد والإبداع؛ ولذلك فكل ما يصدره من مؤلفات تلقي اهتمام القراء. ورغم كثرة ما كتب د. هويدي في ميادين الفلسفة المختلفة فإنه قد كتب واحدًا من أهم مؤلفاته بعنوان «نحو الواقع» حيث جاء هذا الكتاب تتويجًا لخبرة فلسفية طويلة، جاء ليكشف عن التطور الفكري الجديد الذي ظل يعيشه صاحبه في أواخر حياته.

ثانياً: صورة عامة عن حياته ونشاطاته الفكرية

- ولد بالقاهرة بحي الدرب الأحمر في 15 يوليه عام 1923م.
- تخرج في كلية الآداب بجامعة القاهرة قسم الفلسفة عام 1944م بتقدير عام جيد جدًا.
- حصل على ماجستير الفلسفة عام 1949م بتقدير ممتاز في موضوع بعنوان «محاولة جديدة في شرح اللامادية عند بار كلي».
- سافر إلى باريس ليحصل على الدكتوراه من جامعة السوربون بباريس عام 1955م بمرتبة الشرف.

- عين بعد عودته إلى القاهرة مدرسًا بكلية دار العلوم عام 1955م وظل يعمل بها حتى عام 1960م حيث اختير ليعمل مستشارًا ثقافيًا لمصر في غينيا عام 1961م وكذلك بسفارتي مصر في بروكسل ولاهاي.
- عاد بعد ذلك ليعين في كليته الأصلية - كلية الآداب أستاذًا لكرسي الفلسفة عام 1965م ثم وكيلاً للكلية في نفس العام وحتى عام 1970م. ثم عميدًا للكلية بين عامي 1970 - 1972م وفي نفس المدة شغل وظيفة رئيس قسم الفلسفة.
- عمل بالعديد من الجامعات العربية كمعار وكأستاذ زائر، فقد أعير إلى جامعة الملك عبدالعزيز بمكة المكرمة لمدة عام في سنة 1973م. وإلى جامعة الكويت عام 1975م وظل يعمل بها حتى عام 1979م. وقد سافر كأستاذ زائر إلى جامعة القاهرة - فرع الخرطوم، وجامعة الإمارات العربية المتحدة.
- وقد كان للدكتور هويدي نشاطاته الثقافية الفاعلة في المجتمع المصري طوال تلك السنوات حيث كتب عشرات المقالات والبحوث في العديد من المجلات الثقافية المختلفة، كما واكب بكتاباته الفلسفية الفكر السياسي المصري في الخمسينات والستينات بكتابيه «الفلسفة في الميثاق» و«حياد فلسفي».
- أما أشهر مؤلفاته فمنها كتاب «مقدمة في الفلسفة العامة» الذي طبع عدة طبعات، والوضعية المنطقية في الميزان، ودراسات في علم الكلام والفلسفة الإسلامية، ودراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، والفلسفة في شمال أفريقيا - ونحو الواقع - مقالات فلسفية.
- وقد شارك د.هويدي بجهد وافر في ميدان الترجمة، فقدم للمكتبة العربية ترجمة لكتاب باركلي محاورات بين هيلاس وفيلونوس، وكتاب جان لاكروا نظرات في الفلسفة الفرنسية المعاصرة. وكتاب جارودي نظرات حول الإنسان، وكتاب جانيه مشكلات ما بعد الطبيعة وغيرها.
- وقد شارك د.هويدي في العديد من الندوات والمؤتمرات المحلية والدولية في الجزائر وفرنسا وإيطاليا، كما شارك في معظم الندوات السنوية التي عقدتها الجمعية الفلسفية

المصرية. وقد حصل على جائزة الدولة التشجيعية عام 1966م. وقد ظل د.هويدي يواصل رسالته الأكاديمية العلمية في التدريس وتخريج عشرات الطلاب المتميزين في الدراسات العليا لأنحاء العالم العربي من كليته العريقة - آداب القاهرة حتى وفاته.

- وقد توفى د. هويدي في الثاني والعشرين من شهر أبريل عام 2014م، وقد صلى على جثمانه وشيعه إلى مثواه الأخير العشرات من تلاميذه ومحبيه بمسجد السلام بمدينة نصر بالقاهرة، وقد كان لوفاته صدى حزينًا في كل الأوساط الثقافية المصرية والعربية.

ثالثًا: أطوار حياته الفكرية

لقد مر مفكرنا بأطوار فكرية عديدة خلال حياته كان أهم معالمها؛ تلك المرحلة النقدية الأولى التي كان يحاول فيها اكتشاف معالم الطريق الذي سيختاره فيما بعد؛ وقد بدت هذه النزعة النقدية في مقالاته العديدة بالمجلات الثقافية كمقالاته في مجلة «الثقافة» و«الفكر المعاصر»، حيث كتب مقالات نقدية عديدة نشر بعضها في كتاب «نحو الواقع» مثل «الوجودية تلقي حتفها»، وكان كتابه «الوضعية المنطقية في الميزن»، من أبرز معالم هذه المرحلة.

أما المرحلة الثانية من مراحله الفكرية، فقد ركز فيها على التفاعل مع الواقع السياسي والاجتماعي الذي عاشه المجتمع المصي بعد ثورة يوليو 1952م، حيث قام قلمه بدور كبير في تنظيم الفكر الثوري الذي ساد تلك الفترة. ومن كتاباته في تلك المرحلة كتابية «حياد فلسفي» و«الفلسفة في الميثاق»، والكثير من المقالات التي تسير في هذا الاتجاه والتي نشر منها في كتاب «نحو الواقع»؛ «النظرية الفلسفية في الميثاق»، و«معنى الحرية في الأدب» و«الأدب الواقعي ليس أدبًا فوتوغرافيًا».

وفي أثناء هاتين المرحلتين حاول مفكرنا أن يشق لنفسه طريقًا جديدًا لم يطرق من قبل لدى المفكرين المصريين والعرب، وقد وجده في الاتجاه الواقعي الجديد، ذلك الاتجاه الذي حمل لواء التعبير عنه الفيلسوف الإنجليزي صمويل الكسندر (1859 - 1938). ولم يحمل د. هويدي نفسه على تقديم هذا الاتجاه الغربي كما هو إلى القارئ العربي كما كان يفعل غيره من المفكرين العرب حيث ارتبط اسم كل واحد منهم باتجاه فلسفي معين حمل عبء نقله إلى

العربية، بل - كما يقول هو في مقدمته لكتابه «دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة» لقد اتخذ منه موقفًا يطل من خلاله على هذا الفيلسوف أو ذاك دون أن يقع هو نفسه أسيرًا لهذه الفلسفة الواقعية الغربية. وقد تجلى هذا الموقف بوضوح في كتابه العميق «منطق البرهان»، وكذلك في مقالاته عن الواقعية الجديدة وعن مؤسسها صمويل الكسندر. ثم عن أسس الواقعية كما يراها هو في كتابه «دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة» المشار إليه من قبل، والتي اختتمها بمقالة «فلسفتنا فلسفة واقعية» حيث حدد فيها الإطار العام للواقعية الثورية التي تختلف عن الواقعية المادية من ناحية، وعن المثالية من ناحية أخرى؛ تلك الواقعية التي نجد فيها «أن الفيلسوف الواقعي قد استطاع في احترامه للواقع مع عدم الاستسلام له أن يعمق كثيرًا من جوانبه واستطاع كذلك إلى جانب إيمانه بهذا الواقع العميق أن يؤمن بعالم قوامه المثل والقيم يحلق فوق واقعه ويساعده على إعادة تشكيل الحياة وتحقق إرادة التغيير». (دراسات، ص228).

أما المرحلة الثالثة التي عاشها في أواخر حياته، فهي مرحلة امتزج فيها ذلك الاتجاه الواقعي الذي ارتضاه لنفسه منذ زمن، مع اتجاهه القوى الآن إلى الدين الإسلامي بمعالمه الإيمانية والعقائدية الأصيلة؛ إنها مرحلة آمن فيها صاحبها بأن الفكر الأصيل يتفاعل مع الواقع ويصنع الحياة، وهو يعبر عن ذلك بأجلى ما يكون التعبير وقوة العبارة حينما يقول في مقدمة كتابه «نحو الواقع» أنه من «أشد الناس إيمانًا بأن الأفكار هي التي تصنع الحياة، وبأن استرداد شعب من الشعوب لفكرة ضائعة قد يكون أجدى على حياته من أي كشف بترولي أو من عثوره على منجم من الذهب مثلاً. وهو يؤمن أيضًا بأن الروح الدينية والأخلاقية - وليس الإنتاج وأدواته وتحديد ملكياته وأشكاله - هي التي تمثل القاعدة الخرسانية أو البناء التحتي الذي يقوم عليه أي مجتمع ثابت الأركان».

رابعاً: فلسفته الواقعية الإيمانية

وقد جاءت معظم مقالات كتابة الأهم الذي نستند عليه في عرض رؤية مفكرنا الفلسفية، كتاب « نحو الواقع « معبرة عن هذا الإيمان برسالة الفكر حينما يتفاعل مع الواقع فيشارك في صنعه. وقد بدا لي أنه أراد أن يبرهن على ذلك بطريقته فرتب مقالات الكتاب بحيث جعل

أولها هي أخر ما كتب، وأخرها هي أول ما كتب، كدليل جديد على أنه يرى أن قضايا الواقع الذي يعيشه مجتمعه في اللحظة التاريخية الراهنة هي التي يجب أن تشغلنا أكثر من قضايا كنا نعيشها منذ سنوات مضت.

وفي أول تلك المقالات عن «السياسة عند أحمد لطفي السيد» نجده ينتقي من أفكار لطفي السيد ما ينبغي أن يكون حيًا بيننا ويتفاعل مع تلك الأفكار بحماسة الشباب ورجاحة العقل المفكر حينما يتصيد فكرة صائبة عند مفكر آخر؛ فقد التقط قول لطفي السيد «أن القومية معناها أن نكرم أنفسنا ونكرم وطننا» ليتوقف عندها صائحًا «لبيك يا شيخ الفلاسفة: أن نكرم أنفسنا بأن نكرم المواطن فينا» ويذكرنا بأن هذا القول فيه إحياء لقول المشرع اليوناني القديم صولون «بأن خير الأمم أمة يتأثر جميع الأفراد بالإهانة التي تقع على واحد منهم».

وإن كان هذا عن تكريمنا لأنفسنا أو عن تكريمنا للمواطن في كل منا « فإن تكريمنا لوطننا - والقول للدكتور هويدي - لن يكون إلا بشيئين لا ثالث لهما: أولاً، بأن نجعل من وطننا قبلتنا التي نوجه أنفسنا شطرها دائمًا. وثانيًا، الاعتماد على قوانا الذاتية في نهضة هذا البلد الشريف. ويستشهد هنا بقول آخر للطفي السيد يقول فيه «قد أعزرتنا الحوادث إذا أنذرتنا بأن الاتكال على غير المصريين في تحقيق آمال المصريين ضرب من اللعب بالمصالح وحال من أحوال العجز والقنوط».

وقد حفل الكتاب بالعديد من المقالات التي تسير في نفس الاتجاه الذي يبدو فيه الارتباط الوثيق بين المفكر ومجتمعه مثل مقالته عن «أهمية الدراسات الإنسانية في المجتمعات النامية» حيث نادى بضرورة اتصال القائمين على تلك الدراسات بواقعهم والعمل على انهاضه، فأصحاب الدراسات الإنسانية هم الذين تقع على أكتافهم أكثر من غيرهم مهمة نشر الوعي القومي بين أبناء المجتمع.

وهو يؤيد نفس المعنى في مقالة «جامعاتنا وقضية التغيير» ويضيف «أن الدراسات الإنسانية ليست مسئولة فقط عن ترقية الذوق والوجدان وصقل الوعي الإنساني، بل هي - وليست الدراسات في فروع العلوم الفيزيائية أو الرياضية أو الدراسات الهندسية أو الزراعية أو الطبية - المسئولة كذلك عن خلق النظرة العلمية بين أفراد المجتمع بالرغم مما يبدو في هذا

القول من غرابة، وذلك لأن النظرة العلمية التي نحرص على أن يأخذ جميع أفراد المجتمع أنفسهم بها ليست إلا أسلوبًا في الحياة وفي التفكير وأرساءً في النفوس للنظرة الموضوعية المنهجية إلى الأمور، إيجادًا لعلاقات اجتماعية جديدة تقوم على أساس النظرة إلى العمل الذي يصدر عن الإنسان على أنه القيمة الكبرى ورأس المال الوحيد. وكل هذا تقدمه العلوم الإنسانية على أنه دراسة في الوقت الذي يمارسه فيه العلماء دون أن يدرسوه. ولما كانت العلوم الإنسانية علومًا سلوكية في المحل الأول تتوجه بتحليلاتها إلى البشر والناس فإنها تصبح العلوم المسئولة عن نشر النظرة العلمية وإذاعتها في المجتمع».

أما في مقالته عن «الدين والمجتمع عند مصطفى عبدالرازق»، فقد أوضح تلك الدعوة التجديدية الجريئة التي تبناها الشيخ مصطفى حول ربط الدين بالجماعة والمجتمع حينما أكد على أن ارتباط الدين بالجماعة هو الذي يجعل من الدين دينا. وهذا المعنى للدين - في نظر الشيخ مصطفى وكاتبنا - أكثر أصالة من ربطه بفكرة الجزاء أو بفكرة الطاعة.

أما القضية الأساسية التي شغلت مفكرنا طوال الكتاب وفي ثنايا معظم مقالاته فهي قضية «البعث الفكري». وهو يبدأ الحديث فيها بمقالة عنوانها «بعثنا الفكري.. كيف»؛ حيث يرى أن بعثنا الفكري يعتمد على عنصرين أساسيين هما؛ الدين والمجتمع، فهو يقول «أن بعثنا الفكري ديني اجتماعي - يهدف إلى وحدة المجتمع في المقام الأول» ويوضح ما يعنيه حينما ينتقد الصيغ الاجتماعية الشمولية بقوله «أن كثيرًا من الصيغ الاجتماعية في الإصلاح تؤدي إلى هضم الفرد وإلى تقليص وجوده لحساب المجتمع. فالدعوات الشمولية على سبيل المثال لا تمر بالفرد. بل الأحرى أن نقول أنها تمر فوقه» وهو يشير بذلك طبعًا إلى النظرية الماركسية التي تغلب النظرة الجماعية على النظرة الفردية وتعتبر أن الفرد مجرد آلة من آلات التغيير الاجتماعي ويؤدي دوره المرسوم في إطار التطور الشامل للمجتمع.

ومن هنا فإن د. هويدي يؤكد أن الصيغة الاجتماعية التي ينشدها فيما يدعو إليه من بعث فكري هي تلك الصيغة التي أساسها الدين «فإن الصيغة الاجتماعية إذا كان أساسها هو الدين وديانة التوحيد بصفة خاصة فإنها لابد أن تشهد ذلك الالتحام القوي بين قيمة الفرد وقيمة المجتمع، فالدين وحده هو الذي يعلمنا أن الوطنية التي لا تمر بقيمة الفرد ليست إلا شمولية جوفاء قائمة في الفراغ. إن الدين هو الذي يعلمنا أن شرف المواطن هو شرف الوطن كله».

و إذا كـان عنصرا البعـث الفكري يلتحمان في ربط الدين بالمجتمع بالمعنى السـابق، فإن د.هو يـدي يدعو كذلك - لكي يبني هذا البعث الفكري على أسـس علمية - إلى ارتباط علومنا بالواقع الاجتماعي وتلك في أساسها دعوة دينية دعى إليها الإسلاف؛ فهو يقول في مطلع مقالته عـن «المعرفة والعلوم الاجتماعية» أن «أسـلافنا كانوا يقولـون: لا خير في قول أي في فكر إلا ما كان تحته عمل. وبعبارة أخرى نصحونا بالابتعاد عن البحث المجرد الذي لا يؤدي إلى نتائج تطبيقيـة نافعة للنـاس». وهو بالطبع يجددهـذه الدعوة و يطالب علـماء الاجتماع أن ينظروا إلى الواقـع الاجتماعـي نظرة جديدة دعى إليها من قبل هيدجر - الفيلسـوف الألماني المعاصر - وأساسـها «أن التفكير العلمي أو التصوري لا يعدو أن يكون مجرد تنظيم وتبو يب للمعلومات بعـد رصدها»، ومن ثم «فإذا كان التفكير العلمي الاجتماعي لا يكون إلا من خلال الإنسـان والنظم فيحسن أن نستحضر أمامنا تلك الوظيفة الجديدة للتفكير التي يحدثنا عنها هيدجر علها تهدينا إلى أنسـاق اجتماعية جديدة من طراز آخر غير الأنسـاق التـي يعرفها علماء الاجتماع والانثرو بولوجيا حتى الآن. إن أهم الأنسـاق الاجتماعية ليسـت هي بالضرورة تلك الأنساق التي ظهرت على السطح، وليست هي دائمًا الأنساق المقننة، بل قد تكون أنساقًا مهموسة منعها الحيـاء - ولا حيـاء في الدين أو في العلم - أو الخوف مـن خطورتها، أو التوجس من قدرتها على تحر يك المياه السـاكنة الراكدة وعلى إيقاظ النيام من مراقدهم من الكشف عنها ومن وضعها تحت دائرة الضوء».

إنهـا دعـوة إذن إلى أن يتخلى علماء الاجتماع عن النظر يات الجاهزة والأنسـاق المعروفة. وأن يبحثوا في أعماق المجتمع لعلهم يكتشـفون بأنفسـهم أنسـاقًا جديدة تكـون أكثر تعبيرًا عن ذلك الواقع وهو في هذا يدعوهم ألا يخافوا وألا يسـتحوا في الكشـف عن تلك المحركات الجديدة للمجتمع. وأظنني لا أجانب الصواب إن قلت أنه يقصد بذلك النسـق الجديد «النسق الديني» بذلك المعنى الاجتماعي الذي أشرنا إليه من قبل.

وقـد توقـف د.هو يدي كثيرًا في مقالاته عند الدين باعتبـاره جوهر هذا البعث الفكري؛ ففي مقالة «العلاقة بين الفلسـفة والدين من زاو ية حضار ية» يؤكد على أهمية الحل الإسلامي لمشـكلة العلاقة بين الفرد والمجتمع أو بين الفرد والسـلطة و يعتبره هو الحل الأمثل حيما يقرر أن «اسـتقلال الشـخصية لا يتحقق إلا عن طر يق قبول الإنسان الخضوع والتسليم لإله واحد

فقـط لأن هذا الخضـوع لذلك الإله الواحد هـو الضمان الوحيد لعدم خضوع الإنسـان لأية قوة أخرى من تلك القوى التي تضافرت في الماضي وتتضافر الآن على قهره واسـتعباده بأشكال متفاوتة».

و يتطرق د. هو يدي في مقالة «نحو فلسفة قرآنية.. من الخلافة إلى الأمانة» إلى إظهار تفرد الديـن الإسـلامي بأنه لم يكن دينًا نظريًا بمعنى أنه «ليس مجـرد نظرية، بل هو في المحل الأول تطبيـق للنظرية»، فقد كانت «النظرية، نظرية التوحيـد موجودة من قديم من زمن إبراهيم عليه السـلام لكن الإسـلام وحده هو الذي نجح في التطبيق، فهو وحده الذي نجح رسـوله في تطبيقه عمليًا وسلوكيًا وسياسيًا إبان حياته ولهذا كان خاتم الأديان الرسالات».

ومصداق ذلك يبدو من النظر في «مفهوم الحقيقة في الثقافة الإسلامية « على محملها الصحيح كـما يراها مفكرنا في مقالة تحت نفس العنوان؛ حيث إن من دعائم الدعوة الإسـلامية الاتجاه نحـو الواقع وتأمـل الطبيعة، فإذا أراد الإنسـان أن يبحث عن الحقيقة فعليـه بالواقع الطبيعي الديالتيكي المتحرك، وتلك سمة من سمات مفهوم الحقيقة في الثقافة الإسلامية القرآنية».

وهكـذا فإن تحملنا الأمانة بتطبيق الإسـلام كعقيدة وكشريعـة في حياتنا باعتبار أن تلك الشريعـة تتوائم دائمًا مع واقع المجتمع الحي المتحرك، و يعتبر من ضمن دعائم البعث الفكري بذلك المعنى الديني - الاجتماعي الذي يدعو إليه مفكرنا.

ود. هو يدي متفائل بشأن المستقبل الذي سيشهد اتجاهًا نحو تطبيق جديد للمبادئ الإسلامية، فهو يرى بحدس الفيلسوف - الواثق من قوة استدلالاته - و يكشف المتصوف الذي - الذي قديري بعين البصيرة ما لا نراه بعين الإحساس - «أن العالم يقترب في أيامنا هذه أكثر ما كان في أي وقت مضى من مرحلة وضوع الرؤية سينتهي به الأمر قريبًا - وليس هذا على الله ببعيد - إلى اعتناق عقيدة واحدة هي عقيدة التوحيد، و إلى النزول بها إلى أرض التطبيق العملي بعد أن ظلت - على الأقـل - أربعـة عشر قرنًـا من الزمان مجـرد عقيدة نظريـة لم تظفر روحها بالتطبيق الشـامل والممارسة الفعلية الواقعية التي تنأى بها عن كل المظاهر الشكلية والتأويلات الحرفية الضيقة التي لم تمس جوهر العقيدة».

وهكـذا يأمـل د. هو يـدي أن يرى تحقيق تلك الصـورة النقية للإسـلام، والبعيدة عن أي

تفسير متطرف يركز على الشكل دون الجوهر، وفي وقت قريب ولكنه لا ينسى أن يربط تحقق ذلك الأمل بمشيئة الله تعالى حينما قال في الفقرة السابقة بين الشرطتين «وليس ذلك على الله ببعيد».

وأعتقد أنه بهذه العبارة قد ألمح إلى أن ثمة ما يعطل ذلك التطبيق الآن، وأن هناك عوائق تحول دونه، فهل هي في انتشار سوء الفهم لروح العقيدة الإسلامية، أم في الأفراد الذين يحفظون ويعرفون نظريًا ما لا يطبقونه عمليًا في حياتهم، أم أن ثمة خللاً في تلك الرؤية التي تحاول التوفيق بين المثال والواقع، دون أن تفسح المجال للربط بعد الواقع والممكن، ثم إذا ما أصبح ذلك الممكن يومًا هو الواقع، يمكن بعد ذلك الانتقال منه إلى المثال!!؟

إنها مجرد تساؤلات تطرح نفسها بمجرد أن ننتهي من قراءة مقالات د. هويدي «نحو الواقع»، وهي تساؤلات يلخصها تساؤل أكبر ألا وهو: هل اتجه بنا مفكرنا نحو الواقع بكل أبعاده المرئية والمحسوسة، أم أخذ بيدنا لنحلق معه في آفاق الما وراء بحثًا عن واقع جديد لم نجد بعد إمكانات حقيقية؟!

أهم المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

ملف خدمة د. يحيى هويدي بأرشيف كلية الآداب - جامعة القاهرة.

د. يحيى هويدي:

- مقدمة في الفلسفة العامة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الطبعة التاسعة، القاهرة 1979م.
- دراسات في علم الكلام والفلسفة الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة 1972م.
- باركلي، سلسلة نوابع الفكر الغربي (13)، دار المعارف بالقاهرة 1960م.
- دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، دار الثقافة اللطباعة والنشر، القاهرة 1981م.
- منطق البرهان، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة بدون تاريخ.
- نحو الواقع.. مقالات فلسفية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة 1986م.
- قصة الفلسفة الغربية، دار الثقافة للنشر والتوزيع بالقاهرة 1993م.